ثقافة العنف والعنف المضاد في منظومة الثقافة العربية

د. ساسي سفيان،
قسم علم الاجتماع، جامعة الطارف.

ملخص:
بإمكان الباحث السوسيولوجي أن يلاحظ أن المجتمع العربي اليوم، يسعى باحثا عن من يأخذ بيده، يفهمه ويحاوره في ماذا يفكر هذا المجتمع؟ كيف يفكر؟ ماذا يحتاج؟ كيف يحقق احتياجاته؟ فوجد ضالته في الثقافة المضادة والعنف الجمعي، التي بدت في صورة تعنف مثقف بكل المقاييس هذه المرة شباب مثقفون، حقوقيون وإعلاميون ونقابيون، طلبة جامعيون، هم جيل الشبكات الاجتماعية، أوجدوا عهد جديد تفاعلت فيه الخميرة العقلانية العربية، فاقترحت الثورة والتغيير الاجتماعي - العربي -خيارا مباشرا وعلنيا التقطه المجتمع العربي من أقصاه إلى أقصاه، بداية من تونس إلى مصر ثم الأردن إلى اليمن .

Résumé
Le chercheur dans le domaine de la sociologie peut constater aujourd'hui que la société arabe à besoin d'être écoutée, d'être analysée du dedans. Comment pense-t-elle? Quelles sont ses besoins? Pour quoi a-t-elle choisi de s'exprimer à travers une contre culture et une violence collective? Des jeunes intellectuels, militants des droits de l'homme, des représentants des médias, des syndicalistes, des étudiants-produit des réseaux sociaux ont pu inventer une nouvelle ère construite sur la logique de la révolution et du changement social dans le monde arabe. Il est important de mettre en exergue la complexité de cette logique adoptée par les sociétés arabes dans leur totalité.

المقدمة

لقد انكشف أن الديمقراطية سواء كانت أحادية أو تعددية لها مخاطر على الدولة العربية الحديثة، إنها حقيقة عميقة عمق الأزمة الاقتصادية، الاجتماعية، النفسية والعقائدية التي تنخر الكيان العربي سيادة ومجتمعا وإقليما، فلا بد أن نتساءل لماذا الانتفاضة والثورة، لماذا الاتجاه نحو ثقافة العنف والعنف المضاد والتحرك الجمعي البنيوي نحو العنف؟ ماذا بعد العنف؟ من هذا المنطق آثرنا أن نصوغ رؤية متواضعة، تنقلنا من سوسيولوجيا الكلام)الخطاب (إلى سوسيولوجيا التكنوقراط (الحل العملي) فعلم الاجتماع "حكيم الأزمةً" ، "رجل الحل" لهذه الطفرة التاريخية التي تتخبط فيها كافة الأنظمة الاجتماعية العربية دون استثناء، تمثلتها "الثقافة المضادة" والعنف الجمعي "خيار– مجتمعي -مبتكر، نشأ ولم يظهر، بفعل تراكمات غامضة، جديرة بالبحث والتشخيص والدارسة، وفق منهج علمي ابستيمولوجي وضاح للمعالم والحقائق، حيث استخدم الباحث المنهج التاريخي كعنصر لاغنى عنه في إنجاز هذه الدراسة لفهم ثقافة العنف والعنف المضاد في منظومة الثقافة العربية، لقد تم الاعتماد عليه في وصف وتسجيل الوقائع التاريخية التي تبرز تجليات ومظاهر العنف في تاريخ الدول والمجتمعات العربية، ولكن لم يقف الباحث عند حد الوصف والتسجيل بل تعداه إلى دراسة وتحليل الوثائق والأحداث المختلفة وإيجاد التفسيرات الملائمة والمنطقية لها، على أسس علمية دقيقة بغرض الوصول إلى نتائج تمثل حقائق منطقية وتعميمات تساعد في فهم ذلك الماضي العنيف والإستناد على ذلك الفهم في بناء حقائق للحاضر تصف ثقافة العنف والعنف المضاد، وكذلك الوصول إلى القواعد التي تضبط انتشار هذه الثقافة لوضع مشروع حل سوسيولوجي يقوم على إدارة العنف والثقافة المضادة المشروعة في مجتمعاتنا العربية.

أولا. تحديد المفاهيم

مفهوم العنف :

مصطلح عنف في اللغة العربية من الفعل عنف وهو الخرق بالأمر وقلة الرفق به وهو عنيف، إذا لم يكن رفيقا في أمره، (سموك،ع 34: 2006) ، وعنف به، وعليه عنفا، وعنافة، بمعنى أخذه بشدة وقسوة ولامه واعتنف الأمر بمعنى أخذه بعنف و أتاه ولم يكن على علم ودراية به، واعتنف الطعام و الأرض كرههما (أبو الفضل، م32-31: 1979).

وفي اللغة الفرنسية :(Violence) فإن الأصل اللاتيني لكلمة هو (Violentia) ومعناها الاستخدام غير المشروع للقوة المادية بأساليب متعددة لإلحاق الأذى بالأشخاص والإضرار بالممتلكات ويتضمن ذلك معاني : العقاب والاغتصاب والتدخل في حريات الآخرين(legrain, M. 1997: 742)

وفي سياق آخر فإن كلمة (violence) مشتقة من الكلمة اللاتينية المركبة من (Vis) بمعنى القوة وكلمة (Latus) وهي ماض كلمة (fero) التي تعني يحمل، وعليه فان كلمة عنف تعني حمل القوة اتجاه شيء أو شخص أو جماعة (الجوهري، م 34 :1995).

يرتبط العنف بعدم توفر الاعتدال وعدم الصبر على الرغبات، ولا ينشأ العنف عن رغبة معينة، ولكن عن إنكار الواقع و تحدي القانون ."(بستياو،ج 28: 1993).

"يرى الفيلسوف الفرنسي جيل ليبوفتسكي (Jill Iipovitski) : أن العنف شكل من أشكال الاستغلال الزائد للفردية والنرجسية التي يرجع إليهما التحول إلى السلوك الإنسحابي داخل الذات والسلوك العنيف .(الجوهري، م 76 :1995).

ويمكن أيضا الإشارة إلى كتابات عن العنف، مثل ديزموند موريس(Desmond Morris) الفرد العادي 1963 وحديقة الحيوان البشرية 1967، وكونراد لورنتس (Konrad Lorenz) في كتابه " في العدوانية" 1966.

وبحث كاتيلين أيضا بعض البواعث التي تؤثر على الاتجاهات العامة في العنف كالتعليم والمهنة والفقر والجو وتغير الفصول (المرصفاوي، ح 1977 :79-80).

ويتفق علماء النفس على أن الدوافع المكوِّنة للشخصية الثقافية ترتكز إلى عامل الحرية وتحقيق الذات أساسًا، وتتفق التجارب في مجال علم النفس التجريبي على أن الإحباط والقهر وقمع الحرية هو الأساس في الاغتراب والعنف، في حين لا تلعب العوامل الغريزية، مثل الشبع من الطعام والجنس، إلا حيزًا ضئيلاً جدًّا من وعي الإنسان المعاصر ودوافعه العنيفة، وتتأثر هذه الدوافع بالثقافة، فتحرِّضها هذه وتوجِّهها توجيهًا سليمًا أو مرضيًّا.

العنف لدى البشر، إذن، ليس من طبيعة الإنسان، إنما هو خاصية اجتماعية نَمَتْ الحضارة ونشأت معها، وهو ليس، بالتالي، سلوكًا مرضيًّا فرديًّا لإنسان بحدِّ ذاته، وإن اعتبرنا أن شخصية الجماعة هي ثقافتها، يكون العنف، بالتالي، فعل ثقافي مكتسب.

مفهوم الجماعة المتعنفة :

التصور القائم لهذه المقولة يقوم على فكرة" العدوى الجماعية "حيث يفقد الأفراد التفكير المنطقي في إطار الزمرة أو الجماعة، وقد افترض رواد علم النفس الاجتماعي، وجود حالة سيكولوجية أسموها اللاتفرد(deindividuation)، تؤدي إلى زيادة السلوك الاندفاعي الممنوع اجتماعيا بما في ذلك العنف(cozby, D. chris, p. 1983:271).

كما يعنى بها أيضا الجماعة الممارسة للعنف، يعرفها هربرت ماركوز(Herbert Marcuse) " بأنها تلك الجماعات التي تعيش على هامش النظم، الذي تخضع بصورة كاملة لآلياته وتمتلك القدرة على المواجهة للإطاحة بآليات القهر والسيطرة"،(ماركوز،ه 37 :1988)ولكن يرفع عن الجماعة المتعنفة مسألة الحيادية التي أعني بها اللاأخلاقية، لأنها في حقيقة الأمر قوى خارجة عن النظام ومؤهلة لأن تفعل العنف و تتحمل كافة أعباءه، نظرا للجوانب التالية التي يحددها ماركوز في:

إحساس المواطنين (كجماعة متعنفة) بفقدان الهوية وضعف الانتماء.
رفض بعض المواطنين للنظام الجماعي باعتباره نظاما فاشلا و ضعيفا.
بروز دعاوي عرقية أو دينية (أجنحة معارضة) تزعم أحقيتها في السيادة" .(ماركوز، ه55 :1988 .).

إن الجماعة المتعنفة توفر وحدة التصور ووحدة الذات، هذه الوحدة لا تقوم فقط على المودة والانسجام بل على المشاركة الوجدانية في الظروف الصعبة، ظروف متنوعة تهدي بالسعي إلى إثبات الذات والتعبير عن مختلف الانفعالات التي تمت جتمعتها بالتعاطف ومختلف القيم والمطالب المشروعة (الحرية، العدل، روح التغيير).

تنطوي مقاربتنا لمفهوم العنف والجماعة المتعنفة على إحداث علاقة بين العنف والسياسة، ومما لا شك فيه أن الفرد أو الجماعة في المجتمع العربي يكتسبان السلوك العنفي من خلال الثقافة السياسية والتنظيمية التي تؤطر المجتمع العربي و تحكمه، من هذا المنطلق أمكن تحديد مسألة العنف ضمن الأشكال ونماذج وفاعلين.

مفهوم ثقافة العنف :

يحاول المجتمع المعاصر في ضل ثقافة العولمة فَرْضَ قيم مصطنعة، مسبقة الصنع، لكي يكتسب الإنسان معنًى لحياته :على الإنسان أن يكسب الكثير، وأن ينجح، وأن يستهلك على الموضة، ضمن الأُطُر التي يفرضها الاندماج الاجتماعي، وسواء نجح أو فشل، سرعان ما يقع في الإحباط، ليكتشف أنه افتقد حريته، دون أن يحقق أيَّ مغزًى حقيقيٍّ، وافتقد، بالتالي، دوافعه العاطفية، فيظهر لديه شعور عميق بالقهر والملل، يتجلَّى في ميل شديد نحو العنف والتدمير.

يتفق الباحثون أن العنف الاجتماعي يتخذ أشكالاً متنوعة، مباشرة وغير مباشرة، خفية ومعلنة، لكن ما أريد تأكيده، منذ البداية، هو أن العدوان الخارجي ليس مسوِّغًا لثقافة العنف، بل إن ثقافة العنف داخل المجتمع هي تأسيس للهزيمة أمام العدوان الخارجي، فلقد حان الوقت كي نتنبه إلى أن

التنمية ليست مجرد تنمية للأرقام، بل هي، أولاً وأخيرًا، تنمية للإنسان، إذ يضاف العنف الإنساني، في مجتمعاتنا العربية، إلى تعنيف الطبيعة وقهرها، حيث تقوم ثقافة العنف على منظومة فكرية مركزية عقائدية وأخلاقية تستند إليها.

مفهوم الثقافة المضادة :

جاء في اللغة العربية أن الثقافة مشتقة من الثقاف، وهي الأداة التي كان المربي (الراعي) يقود بها قطيعه، إن الثقافة في موضوعنا هي فعل تعبيري مرتبط بمدى اكتمال البناء الدافعي لدى الشخص أو الجماعة في بيئة معينة .

المقولة المركبة الثقافة المضادة: تعني عمل قوة بشرية إراديا متعلقة بحاجات نفسية واجتماعية غير مشبعة، في الاتجاه المضاد في بيئة اجتماعية أي السير ضد ما هو قائم، طلبا في تغيير الوضع الراهن لا البقاء أو الحفاظ عليه.

وارد مفهوم الثقافة المضادة في موضوعنا ضمن مقولة الانتفاضات الشعبية في المجتمعات العربية، بمعنى جملة احباطات ولدت جملة ثقافات مضادة / تعنفات .**العنف الرمزي** :

ويكون موجه إلى قمع العقول والنفوس لا قمع الأجساد إنه عنف أيديولوجي يقوم على قمع فئة لأفكار فئة أخرى، وهو عنف" صامت "وهادئ بكل المقاييس يصطلح عليه في بعض الأدبيات" الحرب النفسية " التي تكون موجهة نحو تحطيم المعنويات وقمع الرغبات وضبط الحاجات" (سموك،ع 45: 2006) .

العنف المادي :

مرتكزه "الإيذاء" باليد كقيمة لا تستحق الحياة والاحترام، وبالتالي استبعاد الآخر من حقل الصراع بتصفيته جسديا وإما بخفضه إلى تابع ويتضمن العنف المادي مختلف أشكال العنف التي يمارسها الأفراد والجماعات الرسمية وغير الرسمية والسلطة الحاكمة كالقتل، اللجوء إلى الحل الأمني لقمع العنف، المظاهرات المعادية للحكومة، أحداث الشغب الناجمة عن عدم إشباع الحاجات الحقوقية والتوزيع غير العادل للثروة الوطنية(سموك،ع 45: 2006).

التطرف :

في الأدبيات السيكولوجية والاجتماعية يعرف" التطرف بأنه خط الاعتدال وثورة ورفض الواقع المحيط بالفرد بما يحمله هذا الواقع من نظام قيمي ومعياري"،(سموك،ع 46: 2006) ، فالتطرف إذن هو الغلو في الاعتقاد بالسلوك العنفي ضد الواقع، إذا لم يكن مقنعا أو كافيا أو ضعيفا أو دكتاتوريا.

العدوان :

"يشير إلى استخدام القوة بغرض تدمير الآخر أو ممتلكاته، نتيجة الشعور بالإحباط والفشل في تحقيق إشباع الحاجات (سموك،ع 49: 2006)

في سوسيولوجيا العنف العربي.(الأشكال / والفاعلين)

العنف الاجتماعي. ومن أسبابه) أشكال القهر الاجتماعي – وأنواع من الدوافع النفسية ، البيئة والاجتماعية)

العنف الثقافي والفكري. أما أسبابه فهي: أساليب التنشئة الاجتماعية (التربية)، الأنظمة والقوانين (النظام السياسي) الايدولوجيا والأعراف والتقاليد (الثقافة).

العنف التربوي. هو نمط ثقافي شأنه شأن الأنماط الأخرى للانحراف الاجتماعي، عبر عملية تنشئة اجتماعية مستمرة من التعليم والتدريب، وينتج عبر نظم ومؤسسات تربوية وتعليمية وعلاقات وتفاعلات اجتماعية وثقافية، يتم إنتاجها وإعادة إنتاجها عبر الوحدات والمؤسسات الاجتماعية نفسها (الأسرة، جماعة الرفاق، المدرسة، الجامعة،.....).

العنف السياسي : وهو استخدام القوة المادية أو التهديد باستخدام قوات الأمن لتحقيق أهداف سياسية"، (ماركوز، ه 47: 1988) ، بمعنى توظيف كافة أعمال الشغب وممارسة الأذى والتدمير بغرض تحقيق أهداف سياسية، وتتعدد القوى التي قد تمارس العنف السياسي على النحو:

العنف الموجه من النظام إلى المواطنين أو إلى جماعات وعناصر معينة وذلك لضمان استمرار وتقليص دور القوى المعارضة والمناوئة له.

العنف الموجه من المواطنين أو فئات معينة (عمال، طلبة، أقليات، تنظيمات سياسية) إلى النظام نفسه.

العنف الموجه من بعض عناصر أو أجنحة النخبة الحاكمة إلى بعض عناصرها أو أجنحتها الأخرى ويدخل هذا النموذج في إطار الصراعات داخل النخبة ذاتها ضمن أشكال التصنيفات الجسدية، الاعتقالات، الانقلابات (سموك، ع 48-47 : 2006).

ثانيا. المقاربات التاريخية والمعرفية لثقافة العنف والعنف المضاد في المجتمعات العربية:

المقاربات التاريخية:

شرعية الأمر الواقع . منظومة احباطات أدت إلى منظومة تعنفات / في تاريخ المجتمع العربي

ملاحظة الواقع واستقراء التاريخ يكشف أن المجتمع العربي، خاض كل التجارب والأزمات وواجه مختلف التوعكات والتعثرات عبر تاريخه الطويل (منذ صدور الإسلام – إلى يومنا هذا) إنه كتلة تاريخية محبطة بامتياز، حيث كانت ولا تزال تحوم على البيت العربي حروبا طائفية ورجعية، تخلفية وتبعية وانغلاقية وأهلية، حروب الحديد والنار التي فتكت به منذ فشل الخلافة الأموية والعباسية في استيعاب عرش الإمبراطورية العربية العظمى التي كان صلبها الإسلام إلى الغزوات الأجنبية(الصليبية من الغرب) و(المغولية من الشرق) التي سال لعابها واشتهت طعم ألمازة العربية فأعلنت الغزو والتعنف، وبحكم صلة المغول الذين هم أبناء عمومه للأتراك، رأوا فيهم القلب الروحي للمسلمين فسلموا ألمازة العربية حملا وديعا إلى أحضان السلطنة العثمانية منذ القرن الخامس عشر .

مشروع الإحباط الماقبل كولونيالي، زمن العثمنة (الحمائية المهزومة)

كانت الخلافة العثمانية منذ تغلغلها في البلاد العربية، قد سلبت عقول المسلمين بما أسمته" دار الإسلام "وأمنتهم بكثير من الأمنيات، عاش معها

الاجتماع العربي أسيرا لهذا المعبد (دار الإسلام) يسقيه الولاء بالملاعق الكبيرة لا الصغيرة باحثا عن سند معنوي يرفع حالة – اليتم – التي جاراها بعد سقوط الخلافة الأموية والعباسية على التوالي، إلى هنا يدخل الاجتماع العربي دائرة المناورة الحقيقية مع نفسه، تجسدت في الامتثال إلى قائمة من الواجبات، التي أملتها الإمبراطورية العثمانية دعما وتعزيزا لمكانتها الإستراتيجية، ومَثَلا الاثنين على مسرح التاريخ، تمثيلية ذلك الطفل البار - المقموع – بتعليمات وتوصيات الأم القامعة – الصلبة – إنها تجربة حياتية، تتوفر على انطباعات الحب والدفء ولكن تنعدم فيها شروط الراحة النفسية والعقلية، هي حالة النكروفيليا التي يسميها علماء النفس" الحب الذي يفضي إلى التجميد ثم الشغف المفرط في القتل "(دليو، ف 24: 2004.)، فقد دلت التجربة التاريخية، أن المجتمع العربي تحنط وتيبس وتجمد ولم يخرج عن إطار ما هو محدد له من تعليمات) مجتمع مغلف (فكانت العثمنة تجربة تاريخية قاسية، مشروع إحباط منظم يضرب برأسين (حب وقتل)، (سعادة وقلق)، (أمن وخوف) منعت البنيان الاجتماع العربي من النظر إلى نفسه (مقموعا) والنظر إلى الآخر المقابل له (الغرب) الذي استوعب درس التنوير(القرن 18) وخبر الحداثة وروع وضعه القائم في انقلابات وطفرات بنيوية متعددة الأوجه (الوثبة الصناعية، العقائدية، السياسية، الاقتصادية)، أما نحن الاجتماع العربي، فلقد تيبسنا وتجمدنا في خطاب سكوني، صوفي متزمت مفعم بالسذاجة والتقاليد السلبية واللاوعي، وعوضا أن تدفع العثمنة البيت العربي (دار الإسلام) وأهله نحو الاستنارة والتجديد والتذوق والمثاقفة والحوار واليقظة، زجت به إلى حقل عكر (طرقيات، غيبيات، تهويمات سفسطائيات، صوفيات شعبوية، خرافات وسحر و شعوذة).

ثم ما لبث أن امتد سرطان التصدع" النسق الفكري والعقائدي "السائد إلى النسق الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والعسكري، خاصة في عهد السلطان سليم سنة 1517" (غليون، ب 43 :1993) ، حيث انهارت سيطرة الجيوش الانكشارية على قنوات التجارة البحرية وانتشر الفساد في الإدارة

العامة وانتهى الهم التاريخي الأعظم الذي حمله البنيان العربي بهذه النهاية المحزنة (إحباط عميق ووصمة عار) لحب مهزوم وحمائية مأزومة من داخلها وتجسدت بذلك أكبر محاكمة تاريخية للإمبراطورية المترهلة باسم ما أنعته الأوربيون (الرجل المريض) الذي إن لم يمت فلنستحث موته بالسم (القتل المستعجل)، لأن الإنسان والمجتمع الغربي لم يعد قادر على الانتظار كثيرا، إن وراءه مشاريع وأفكار وبرامج ولا بد أن يكسب الوقت أما نحن فماذا جنينا؟ إلا شقاء تاريخي وبدلا من أن نأمل ونطمح قمعنا وتعثرنا، فكانت صدمة الإحباط الأولى في تاريخنا .

نحو النموذج الإصلاحي وإعادة ترتيب البيت (مشروع الحداثة المجهضة)

بعد حالة من الغياب التاريخي (الانطواء والجمود) في أحضان حمائية مهزومة (أزمة روحية عميقة) تشكلت معجزة الانبعاث للأمة العربية الإسلامية :مع محمد بن عبد الوهاب (1703- 1792) كانت الحركة الوهابية ردة إصلاح قوية استهدفت الطرقيات الصوفية والشعبوية والسحرية السائدة، فأعادت الحياة إلى الفكر الشرعي الكلاسيكي وجددت الدعوة إلى التوحيد وتنقية مفهوم الألوهة من أي تجسيد أو تشبيه بالرمز والصورة الذي تعرض له زمن العثمانيين، فدعت إلى الإصلاح الشامل وضرورته، القائم على الصرامة وإحياء مفاهيم التنزيه وسلطة الشريعة ومبدأ الجهاد" (غليون، ب 45 :1993) ، كانت الحركة الوهابية المسمار الأخير الذي يدق في نعش الفكر الصوفي الشعبي الذي عمر منذ قرون، وعكست في الواقع رد فعل الإسلام العربي"أي الدعوة إلى إعادة الخلافة إلى العرب كشرط لا بد منه لنجاح الإصلاح " (الكواكبي، ع83 :1980 .).

فقد أعلن (خير الدين) تطبيق ما أسماه" عهد الأمان "في تونس، (حكمت باشا وسليمان باشا) في سوريا والعراق، (محمد علي السنوسي) وحركته الإصلاحية في ليبيا، (الأمير عبد القادر) في الجزائر، (محمد علي) في مصر لقد أعلن هؤلاء بأقصى ما يمكن من الاستعراضية" قدوم النظام الاجتماعي الجديد "باسم ما أنعتوه الدولة الحديثة .

لكن يبدو أن الدولة التحديثية سوف تكون تغريبية بامتياز، فلقد كانت تجربة محمد علي (مصر) بعد أن وصل سدة الحكم أكبر مغامرة تاريخية تلحق الهزيمة بجيوش المملوكية العثمانية وتطمح إلى التفكير بالحلول محل السلطنة الإمبراطورية لينهي برنامج الإصلاح بقمع الأخطبوط الوهابي (النموذج العتيق) في الأراضي المصرية 1819 ، وأوجد البديل في مساندة حكمه وهم حفنة العلماء والمهندسين الموالين للفكر السيموني والمتأثرين بالثورة النابليونية، فأرسل البعثات الطلابية إلى أوروبا من أجل اكتشاف صورة العالم الجديد والتفتح على منجزاته، حتى حفظ أحفاد محمد علي هذا الدرس التاريخي جيدا وأصبحوا يعتبرون مصر قطعة من أوروبا وليس بلدا عربيا إسلاميا، إنها بدايات الانغماس في البحيرة الغربية.

بإمكان المرء أن يلاحظ أن تجربة "الغطس" في البحيرة الغربية – أملا في التحديث، تمثل أكبر عملية جراحية فاشلة في التاريخ الأجنبي للاجتماع العربي، إنه قدر الجرح والتعديل قدر الموت لمجتمع أراد أن ينهض جينيا بعكاز الآخر (الغرب) فكان الموت عارضا ومستعجلا عندما وضعته الملابسات التاريخية في أول سؤال تاريخي له :كيف يمكن إيجاد حل بين "الأصيل والمستورد "وأعني بذلك التكافؤ بين البنى العربية الإسلامية (الخصوصية) وبين الدولة الحديثة (البنى المستأجرة) إن فلسفة "الاستئجار" و "الكراء"،" الاستئصال "و"الزرع"،" الإكراميات "و"الصدقات "هي المسؤولة على إقامة الحسابات العكسية في زمن ليس ببعيد في تاريخ الاجتماع العربي .

كانت إنجازات وانتصارات محمد علي (العسكرية والاقتصادية والسياسية) التي كادت أن تضع مصير الإمبراطورية العظمى بين كفيها قد أثارت حفيظة للدول الغربية تجاه القوى الإسلامية، وكانت النتيجة التحالف الغربي من أجل إجهاض المشروع التحديثي) الجهاز الاقتصادي والسياسي (وتصفيته في مصر خاصة، وتحولت ملحمة الدولة التحديثية " إلى مغامرة تعسة كان من نتائجها دفع مصر الحديثة نحو الاستسلام الكامل" (غليون،

ب137 –136 :1993)، ثم فرض الوصاية والانتداب على بقية الأقطار العربية التي راحت هي الأخرى رهينة للكولونيالية الغربية، لينتهي المشروع التحديثي، بالاتفاق على تجميد الرجل المريض والهيمنة على أطرافه بتوزيع أو تقسيم ارثه، ومن ثم إلغاء الخلافة العثمانية 1924 ، وإعلان الجمهورية التركية مكانها ليتكرس مشروع الإحباط مرة أخرى حين تعلق وأمل الاجتماع العربي كثيرا بالمسألة الحداثية وانتهت آماله وتطلعاته، بهذه النهاية المحزنة تشوش وفوضى في البيت الداخلي العربي أفضت إلى إجهاض مشروعه الحداثي المستأجر بامتياز.

الانبعاث اليائس في الزمن الكولونيالي (محنة الدولة ضد الأمة)

لقد أفاق المجتمع العربي فجأة على هول الصدام والقلق، بين القديم والجديد والتقليدي والمستحدث (والعربي والأجنبي) فبينما راهن البعض على تعبئة القوى الدينية والقبلية للخلاص من خطر الغرب، واستمر معارضا للخروج عن الدولة العثمانية أملا أن يشكل تجمع المسلمين عنصر قوة في إستراتيجية المواجهة للغزو الأجنبي (الاستعمار الحديث) راهن النصف الآخر على الغرب الحديث (عالم التمدن والتحديث)، بكل ما لديه للخلاص من النير العثماني ليخرج هؤلاء وهؤلاء محبطين ويائسين إذ بعد فترة النشوة الأولى والأمل بالاستقلال، جاءت مرحلة الشك والانقسام والضغينة والتساؤل عما إذا كانت الثورة ضد الأتراك صحيحة وصائبة؟

التحديث وتمظهراته اللامحتملة في المجتمع العربي

بعد الأيام الأولى من الاستقلال يدخل المجتمع العربي عالم جديد اسمه "الدولة التحديثية "التي ورثت عن النظام الاستعماري، مشاكل صعبة وفي مقدمتها ولادة سلطة محلية، ضعيفة وغير مجربة، بليدة وغير مبتكرة للحلول التي تطفئ حمأة الجماهير العربية، وحاجتها إلى السيادة والتحرر الشامل والعدالة، إذن لا زال مفعول" استئجار "الدولة التحديثية قائما والسير

والنهوض بعكاز الآخر (الغرب)، كانت مصر الساداتية (1970) مرة أخرى مبادرا بهذه المغامرة التاريخية التي توافد عليها العرب دون وعي، حيث اللجوء إلى صندوق النقد الدولي والبنك العالمي للإنشاء والتعمير، وظنوا أنه خير ألوهي كان بانتظار الكيانات العربية – المتحررة – لبعث مشروعها التنموي –التحديثي وتحول هذا الحلم إلى رهان صعب" النفط مقابل الغذاء"، إذن يبدو أن المجتمع العربي لم يأخذ الدرس من تاريخه الطويل حتى أصبح وضعه الاجتماعي، الاقتصادي والسياسي مفعولا به من طرف الدول الصناعية، إنه ليس بمأمن، وحالة المساومة، القلق، الخيبة تحيط به من كل جانب، حالة إحباط منظم كانت من صنيع القادة العرب دون سواهم دفع ثمنها الجماهير العربية العريضة التي أملت كثيرا وأحبطت كثيرا.

تداعيات الدولة التحديثية البوليسية – المستبدة – في المجتمع العربي

ترى ماذا خلفت الدولة التحديثية الأبوية - الوحيدة الحزب -في المجتمعات العربية؟ تفاقم معدل المديونية، ارتفاع التضخم والأسعار، تدمير الصناعة والزراعة، نقل التكنولوجيا، انتشار البطالة، تقهقر الإدارة العامة، الفقر، رداءة الخدمات العمومية بشكل واسع، حرمان الأغلبية من الثروة الوطنية، اقتصاديات تابعة بامتياز، إفلاس الشركات وغلقها، تجميد الأجور" (بومهرة، ن26 :1997 .) ليقع المجتمع العربي من أقصاه إلى أقصاه في سديم اليأس والإحباط والصمت وتكميم الأفواه، فليس هناك من يستطيع أن يشير بكلمة أو حركة إلى السبيل الممكن لقراءة هذا الوضع، وفهم ما يحدث؟ لأن أسئلة المجتمع المدني مزعجة، مقلقة ومشوشة تهدد العرش الحصين، (نعم حدث هذا عندنا) وإذا المجتمع سئل بأي ذنب سكت عن الوضع الرث – فإن جوابه كان أخرسا ومحاصرا ومقيدا أو ممنوعا، أسيرا لأفيون الناصرية في مصر، والقذافية في ليبيا، والبورقيبية في تونس والشاذلية في الجزائر، والشاهنشاهية في إيران والقابوسية في عمان والسلطوية المطلقة في الخليج العربي، نعم إنها محنة (الدولة الأبوية -المستبدة -ضد المجتمع) هذه المرة طارحة نفسها كما البارحة أو اليوم بشكل عارض وبائن ومؤسس من طرف

القادة الرموز هم ورعيلهم الجديد أو من أعدوا أنفسهم رموز"، فصادقوا بأختامهم على أكثر من ملف – موت الدولة التحديثية -العربية، الدولة المثقوبة "من جدها إلى أبيها ."

التعددية الحزبية. " ديكورا " ومحنة الديمقراطيات العربية

بعد مضي أكثر من عشرا أوعشرين سنة من تراجع الممارسة الأبوية للدولة البوليسية الواحدية،(حجاج، ق295 :2003.) الحزب" التي سلبت إرادات الأفراد والجماعات"، (سموك،ع319 :2006 .) وبعد أن ثبت أن ديمقراطية الأسود (الرجل الواحد، الحزب الواحد، الرأي الواحد) في عديد من الأقطار العربية"، (المراغي، م79 :1997) لم ترحم الإنسان والمجتمع العربي على حد سواء؟ إنه عهد أفول الحكومات، زمن الخيارات الصعبة الذي يقول عن نفسه عصر التنوير العربي الجديد، عصر التعددية الحزبية السياسية والصرح المؤسساتي لكن ظهر أن النوايا ليست صافية ونقية مرة أخرى، فبدلا من أن تسير الأمور والأوضاع باتجاه الثقافة والفعل المثقف – الحكيم، الرشيد والعقلاني – حدث العكس : الفعل المضاد والثقافة المواطناتية المتعنفة من تفجيرات، عمليات انتحارية، اشتباكات مسلحة، حرب أهلية، اغتيالات، سطو وقرصنة، إذن إن ديمقراطية الثعالب ليست إلا ديكورا (ديمقراطية شكلها مزخرف ولكن مضمونها متجعد) وهي إذن ليست أرحم من ديمقراطية الأسود لربما كانت إحدى سلالاتها المستنسخة بامتياز، ليقع المجتمع العربي مقموعا ومحبطا، مرة أخرى، ولربما الجرح اليوم أصبح عميقا بكثير (كما سبق أن نوهنا)، لقد أصبحنا أمام ديمقراطيات متعددة ومتشظية ومتشرذمة سلخت جسم الدولة سلخا غير بريء من التأويل، فهناك من لجأ إلى الدين وصنع تحفته (لعبته) السياسية بالعلامة الدينية (الحزب الإسلامي) وهناك من افتتن بالغرب وصنع حزبا له بالعلامة التقدمية (حزب التجديد) وهناك من اعتصم بالعروى التاريخية (الثورة والكفاح والوطني) ووصم حزبه بهذه العلامة التاريخية وتحولت التجربة الديمقراطية بين هؤلاء وهؤلاء، إلى حلبة صراع يتغذى بامتياز على جملة المصالح والمنافع في عديد

من الأقطار العربية (لبنان، مصر، الجزائر، تونس، اليمن)، ورضا هؤلاء أثار سخط أولئك ورضا أولئك أثار سخط هؤلاء، وكأنها حالة من الطبيعة الأولى" حرب الجميع ضد الجميع"، ليقع الجميع في قارب واحد، شريكا في البناء المنظم لمجتمع متفرقع من داخله، قابل للعنف والتعنف في أي لحظة تاريخية لاحقة.

تمظهره في الدولة العربية الحديثة. هل أصبحت الدولة العربية اليوم، دولة متعنفة، تهدي إلى العنف؟ ما تجليات ذلك في الفعل الجماهيري (المجتمعي) العربي؟

الدين والعنف

إن الإحساس بالقهر السياسي والضغط الاقتصادي لابد وأن يقود إلى التأثير بشكل خطير ومؤسف على دور الدين في تنمية المجتمع وترقيته والنهوض به، فإذا كان الدين هو أم القيم والمثل الأعلى، فإننا نرى أجنحة دينية وتيارات مختلفة تحوم على المجتمع العربي، متخذة مواقف :

فريق المتطرفين، رفض النظام الاجتماعي القائم وتفكيره، ليس النظام الحاكم فقط ولكن نظام حياة الجماعات الاجتماعية وعيشها إن هذا الجناح الديني لا يتشاور، لا يتحاور ولكنه يضرب ويقتل ويحرق ويغتصب ويعتدي، هذه هي ثقافة المتطرفين .

فريق المنسحبين، جناح آخر لا تسمح له طبيعته المسالمة بالممارسة المضادة والسلوك المتعنف يشعر أنصاره بعجز حقيقي عن تعديل الأوضاع الخاطئة ويتنكرونها، فيهربون إلى ما بعد الحياة، ويقفزون بالدين فوق الحياة المعاصرة (الحياة الواقعية) وشغلهم الشاغل، أحاديث الموت، الألوهية، قيام الساعة، والتحليق في عالم ما بعد الحياة وما بعد الموت، وحتى مشاركتهم في الحياة الاجتماعية أصبحت محدودة، نراها في التجمعات (الحلقات) الدينية داخل المساجد، نراها في أرصفة الطرقات (بيع الأشرطة الدينية وقصص الأنبياء، إكسسوارات سلفية).

فريق المعتدلين، جناح وسطي أو معتدل، يخوض الحياة السياسية ويتكلم لغة العصر، ولكن من موقع ديني وبفكر ديني ولكنه لا يجد تجسيدا سياسيا –عمليا له لكي ينقله من قوة هلامية شائعة الوجود إلى قوة منظمة ذات تأثير ووزن سياسيين.

وبين هذه الفرق التي سلخت المنظومة الدينية – سلخا، فقد الدين في مجتمعاتنا العربية كنظام اجتماعي ثقافي، قوة دفع هامة وطاقة هائلة وتحول إلى قوة معيقة للتقدم أو عامل جمود فكري واجتماعي.

الفساد التنظيمي (المؤسساتي) والعنف

الفساد من تراث النظم الشمولية في مجتمعاتنا العربية، ترعرع في ظلها وانكشف وتعرى في نظمنا الديمقراطية المفتوحة اليوم، فقد عانت مختلف المجتمعات العربية من حكم شمولي طويل، أهداها بؤرا عديدة للفساد، أخطرها ذلك الذي تعشش وترتع في دوائر الحكومة والقطاع العام حيث "المال السايب"، ليس الفساد سرقة أموال فحسب، ولكنه أسلوب في الحكم (وفي الاستخلاف والتسيير) اختيار الوكلاء والنواب الذين يمكن أن يكونوا قريبين من المسؤول في الموقع، قربا يسمح لهم بالتأثير عليه، وفي تعيين الناس وترقيتهم يعتمد هذا المرض المؤسساتي على الواسطة والمحسوبية، وهي واسطة (الدفع المسبق) أو واسطة القرابة والشلة، ولا نريد أن نستطرد في حديث الفساد في نظمنا العربية، ولكننا ننبه إلى أن" الإخفاق الديمقراطي، هو الذي أدى آليا إلى انتعاش الفساد وازدهاره وتدمير مصفوفة طويلة من القيم والمثل، قيم الإنجاز والعمل والولاء للوطن وللمؤسسة وليس للشخص"(قناوي، ش 112 :1988).

البطالة والعنف

حقيقة تلمسها كل أسرة عربية، لديها عضو أو أكثر لا يجد العمل الذي يكفل له الشرف والأمان وتحقيق وجوده الاجتماعي والإنساني ولا جدوى من أن نسوق الإحصائيات، فالأرقام في نظمنا العربية، تعاني كما يعاني كل شيء من ضعف الانضباط وهذا ما عبر عنه مطاع صفدي" :إن مجتمعاتنا

العربية بدون علم للاجتماع العربي، بدون علم للنفس البشرية العربية، بدون علم اقتصادي لثرواتنا وخساراتنا، بدون علم للإحصاء حول مختلف أرقامنا السرية"، ولننظر إلى عصابات الحرقة والانتحار والحرق البدني، التي اختارت إبادة النفس والآخرين، هؤلاء أينما كانوا وحيثما وجدوا ليسوا سوى أقوى تجسيد لقوى بشرية عاطلة عن العمل لم تكن معهودة بالعناية والرعاية الكافية.

الخدمات الاجتماعية والعنف العربي

تفتقت الانتفاضات الشعبية، عندما انفجرت مسألة إصلاح اقتصادي غير مرضي يقول في العديد من الأقطار العربية بالتقليل من دعم الدولة للخدمات والمرافق (فترتفع أسعارها) بطبيعة الحال، وتلك الخدمات والمرافق ليست ترفا يستطيع المرء أن يستغني عنها، فالتعليم والعلاج والمواصلات والصرف الصحي والسكن والغذاء ونظم التعويضات، كلها مطالب لا يمكن الإقلاع عنها، وإذا كانت الدوائر الرسمية (السلطة) تدعي أن مرتبات الموظفين تزيد، فإن أسعار الخدمات والمرافق ترتفع أي أن زيادة المداخيل أيا كان مصدرها مقرون بزيادة أسعار الخدمات، إنها دولة اليد الممدودة القائمة على إستراتيجية المنح باليمنى والسحب باليسرى هذا ما أثار شجون وغضب الجماهير العربية اليوم .

ثالثا . المخاض العربي (الثقافة المضادة ومشروع العنف الجمعي)

المستويات

إن الممارسة العنفية – العربية – كانت متنفسا لإعداد مشروع تعبئة جديد لفرص الحياة الاجتماعية القائمة، التي تحركت ضمن مجموعة مستويات عدت مقياسا يستدل به على التغيرات والتحولات الجارية اليوم، نلخصها في :

المستوى الأكاديمي (العلمي والتقني) :

نحو الثقافة العلمية التي كرست المقولة الحيوية" :معلومة لكل عقل – كمبيوتر في كل بيت – جريدة لكل يد " و "مبدأ الثقافة للجميع " إذ أن المجتمع العربي يتحرك بنيويا نحو الثقافة العلمية والتكنولوجية بامتياز، أصبح معه الإنسان العربي لا يستغني عن الإعلام بشتى وسائطه، واهتمامه الجاد بهذه الوسائط (خاصة الوسائط الالكترونية) عبر الشبكات الاجتماعية التي كانت عاملا جوهريا في تفجير طاقة الثورة والتعنف في عديد من المجتمعات العربية إلى مستوى غير مألوف، وإسماع نداءه الثوري إلى مستوى العالمية (حادثة سيدي بوزيد بتونس، ميدان التحرير بمصر، المسيرة الهادئة في الجزائر).

المواجهة الواقعية الشفافة والمباشرة التي وفرتها ثورة المعرفة والمعلوماتية :مما أفضى إلى تقلص ملحوظ لمساحة التمويه والمزايدة، التغليف والتظليل لما يجري بين السلطة بمختلف هيئاتها (أحزاب ومؤسسات) والدوائر الاجتماعية (المجتمع المدني بمختلف فئاته المهنية والعمرية والطبقية)، فالوعي الجماهيري العربي تشكل اليوم بآلياته الداخلية – التلقائية الخاصة – إنه لم يكن وعيا مستوردا أو مكيفا أو مستأجرا من نماذج وتجارب الآخر (الوعي الغربي)، لم تكن اليقظة العربية اليوم مطية للإسقاطات المشوهة والاستئصالات المشبوهة التي لا تراعي المجال السيكوتكويني لموضوع الوعي (الذي أقصد به الواقع الاجتماعي العربي) فاليقظة العربية التي عبرت عن نفسها اليوم في مشروع منظم عنوانه" المبادأة بالفعل المضاد والعنف الجمعي المشروع "أخذ مجراه في سياق تراكمات سوسيوبنيوية تختص به الحضيرة العربية دون سواها بعد مخاض عسير عاشت فيه سجينة الخداع والمغالطة، إن الوعي (الفكر) العربي لم يعد غائبا وحتى المثقف العربي يبدو أنه خرج للتو من غيبوبته (يكفيه غيابا)، فبإمكان المرء أن يلاحظ أن الانتفاضات الاجتماعية العربية، التي انفجرت اليوم انتفاضات نخبوية بامتياز والمثقفون هم رفقاء الطريق، والمجتمع العربي بمشاركتهم (إعلاميين، حقوقيين، نقابيين) لم يعد يتيما بعد الآن، لقد وجد من يأخذ بيده ويشحنه نحو آماله

وتطلعاته، لربما كانت هذه الانتفاضات العربية مبشرا بقاعدة أن النسق السياسي في المجتمع العربي وبعد أن حقق إشباعا كافيا للنزوة التي يطوقها في عرش المثقفين وفق قاعدة" : أيها المثقف أطفئ مصباح عقلك وسر وأنت أعمى "وتفوق بامتياز في تخريج سلالة من المثقفين المهزومين، مثقفي البلاط (المثقف المقاول، الزئبقي، الإجتراري، الترزي، المثقف الطاووس الذي اختال عجبا بنفسه)، (الدجاني، أ.الجابري، م132 –125 :1995.) ترهل كثيرا اليوم وتراجع صولجانه التاريخي في قبضته الحديدية عرش المثقفين النزهاء، هؤلاء المقموعين الذين ظنهم المجتمع أنهم ليسوا رفقائه في الطريق .

المستوى الاقتصادي : وتتجلى في ما يلي:

قلة فرص العمل المتاحة، لأن الأتمتة عوضت حاليا عضلات الرجال بامتياز (حجاج، ق291 :2003 .) في العديد من الأقطار العربية.

ارتفاع القدرة الشرائية وغلاء أسعار المواد الغذائية الأساسية (مادة السكر، الحليب، الزيت).

الاعتماد على السياحة والثقافة بشكل أساسي في تطبيع ظروف العيش وصعوباته (حالة تونس، سوريا، مصر نموذجا خاصا).

سوء تصريف أو توزيع الثروة والمال العام في البلدان العربية وتمركزها في حيازة طبقة (عمولات، رشاوي، اختلاسات، احتكارات).

انتشار المعلومات الاقتصادية عن مستوى الدخل الوطني الخام، معدلات الميزان التجاري للبلد العربي، بحيث أصبحت الثقافة الاقتصادية مشاعة لجميع الأفراد بفضل المعلوماتية وتقنيات الاتصال.

خدمة الديون مجددا التي أصبحت تمتص الجزء الأكبر من العائدات النفطية (75%)(دراج، ف10 :1981).

الحصار الاقتصادي المفروض على بعض الدول العربية (سوريا، ليبيا، المغرب، الأردن).

البطء في إقامة نموذج اقتصادي يستوعب حجم الطبقة البشرية الناعمة والمؤهلة.

نقل التكنولوجيا بشكل شبه مطلق لازال مستمرا في العديد من البلدان العربية والخضوع لمنطق" تفتيت العلبة التكنولوجية "(شكري،غ 15 :1990) ، وغيرها من أشكال الوجود الخامل في مسار الإبداع الثقافي الذاتي – للتقنية (شكري،غ 366 :1990).

العجز المالي المستمر الذي تعانيه الوحدات الإنتاجية – القاعدية – في العديد من الأقطار العربية، الشيء الذي يطرح مسألة غلق المؤسسات وتسريح العمال بالجملة .

وحدات إنتاجية قاعدية لا تزال مغلقة، رغم أنها تستوعب طاقة تموينية مهولة للمواد الغذائية (مؤسسة الشمندر السكري بمدينة قالمة/الجزائر).

لا تزال نظرية تطبيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية قاصرة على أنها مشروع أقليات لا مشروع مجتمع يحظى بمشاركة الجميع (ناجي، س255 :2008) .

المستوى السياسي :

غياب الثقافة السياسية في رصيد معظم الأنظمة العربية في تاريخها الطويل، حيث أساليب الارتقاء والحراك الاجتماعي وطرق التداول على السلطة ودوران النخب وأسس توزيع القوة ومواقع اتخاذ القرار، لا تزال مخلفة عن العصر الديمقراطي الذي نجاريه، فالسياسات العربية تتحدث إلى الجماهير ولا تتحدث معهم، إذ تنقل رسائل من القمة إلى القاعدة دون القيام بالتغذية العكسية، بمعنى نقل ردود أفعال القاعدة إلى القمة." (المنوافي، ك 1992 :183).

سيطرة قيم العرق والدم والتوريث في التجارب الديمقراطية التي تخوضها الأنظمة العربية اليوم فالرصيد من الفاشية والعنصرية والطائفية لا يعيش خارج الذاكرة العربية، إنه التجسيد الحي لأقنعة الإرهاب المضادة لأعمال العقل.

مسألة اللغة والدين ليست معزولة عن ظاهرة الصراع الدائر بين جماعات النخب السياسية العربية .

العنف السياسي في تصعيد مستمر أدى في كثير من الأحيان إلى إجهاض التجربة الديمقراطية.

تكسّر جدار الثقة بين المواطن والسلطة في أغلب المجتمعات العربية اليوم.

"ميل الزعماء والقادة العرب إلى تنزيه أنفسهم وتبرأة ذواتهم من تهمة المسؤولية في إنتاج الإخفاق التنموي – العربي – واكتفوا بذبح الشعب وسلخه وتحميله مسؤولية ذلك الإخفاق" (العروي، ع107 :1973).

هيمنة " الحقل الاجتماعي السياسي " الأجوف-(بورديو، ب19 –18 :1997.) الذي أفضى إلى تفجير مجموعة من مجالات اللعب، يتصارع ويتنافس فيه الفاعلون تبعا للمواقع التي يشغلونها حيث تتأسس قواعد اللعبة السياسية في مختلف الأنظمة العربية على منهج المؤامرة والإسقاط) كل شيء ضدي وما أنا إلا ضحية، والذي تكشف عنه حالات انحراف المقاصد وبالتالي سقوط المجتمع اللاسياسي (المدني) في الهاوية .

المستوى التربوي، الاجتماعي والقيمي :

مكونات السياسات التعليمية والمدرسين ونتاج عمل الباحثين ومراكز البحث الجامعي على الرغم من الإنجازات المحققة في مجال التوسع الكمي تبقى عمليا غير ملائمة فالتعليم الجامعي – عربيا – ليس متخلفا جدا، بل مغربا جدا، وهو بحاجة إلى الثورة على الإشهار الفكري الثقافي الذي يجتاحه وهذا ما أبقى المجتمع العربي مشوها يفكر برأسين ويعيش جميع المتناقضات (قلالة، م :2003 152) .

الوضع العام للتربية والتعليم لا زال متواضعا ولا يلبي احتياجات التنمية البشرية المستدامة، فهو قائم على الحفظ والتلقين واسترجاع المعلومات والحقائق أكثر مما يؤكد على التحليل والتركيب والاستنتاج،

نمو وترعرع معطيات الحياة المعاصرة ومتطلباتها جعل المجتمع يصارع صدمة الحوار الحضاري والديني والثقافي بموديلات وتشكلات اجتماعية مختلفة ومتناقضة نمت نمو الفطر (السلفيين، الأصوليين، العصريين، المتطرفين، الإرهابيين، المصلحين، الدعاة).

تبعية الإعلام والجامعة للسياسة" فهناك دوائر يحظر الاقتراب منها وحدود" لما يكتب وما لا يكتب" (شكري،ع142 :1986)، فالأرضية الاجتماعية والثقافية

التي تساعد على نمو العلم والتقنية، هشة وغير ملائمة تدعمها سهولة الحصول على نتائج العلم ومنظومات التقنية بسهولة من الخارج دون عناء (زحلان، أ :1980 120– 126) .

تجاهل التفكير العلمي في معالجة قضايا المجتمعات العربية" (مشروع إعداد إستراتيجية عربية لنشر الثقافة العلمية والثقافية في الوطن العربي -2003. 2004:15) فأغلب المجتمعات العربية منكوبة بغياب النظرية السياسية العلمية (النقدية) (العروي،ع185 :1981).

انتشار ثقافة" الوعي بالحرمان "وهو في أبسط مدلولاته التفاوت السلبي بين التوقع المشروع للواقع والذي يؤدي إلى سيطرة ما يسمى بالموقف الإحباطي مما يؤدي إلى "وجود صفوات وأيديولوجيات بديلة تعبئ المواطنين ضد النظام وتقدم تبريرات بضرورة تغيير الواقع ورسم صورة مثالية للمستقبل أمام الجماعات التي تعاني الحرمان" (الغزالي، أ741-740 :1978) .

الهامشية الاجتماعية وانحدار الإنسان العربي إلى مستوى الهامشية في أبعد صورها (الانطواء، الاغتراب، ضعف بناء الأنا، الميل إلى الاتجاهات السلفية، الاستجابة السريعة للمواقف، عدم القدرة على تأجيل الإشباع للدوافع الفردية (هلال،ع:1987 35 –25)، اللجوء إلى الانتحار، الحرق البدني .

إن هذه المستويات من التحليل ومختلف التصيرات التي رافقتها تكشف أن المجتمع العربي، تحلى بكثير من اليقظة التي منحته إمكانية التشكل والتنظم والتعاضد ومن ثم التعبير والتصريح، ولم تكن الانتفاضة التي قررها اليوم : فعل امتثال، ولا فعل رضوخ ولا فعل تنازل ولكنه فعل انقضاض على كل بشاعات الصمت والسكون لمجتمع تواق إلى التحرر والتوحد والحياة .

ورقة في سوسيولوجيا" الإنتفاضة "بدلالة الثقافة المضادة والعنف الجمعي العربي المشروع

بعد عشرا أو عشرين سنة من الجمود، افتعله آلة الدولة المعطلة أو العاطلة عن العمل– كما أوضحنا – عن تقديم البديل المعقول والمقبول، لهذه الدوائر والجماعات الاجتماعية (المتعنفة اليوم) التي لم تطالب بحقها التاريخي ولكن بحقها الإنساني في الحياة والعيش الكريم، اجتمعت جملة الدوافع (الإثارات النفسية) وشحنت بشكل جيد في وجدان المجتمع المصغر– المحروم –(أغلبه شباب) بالتأكيد أفرزت ثقافة خاصة أو فرعية إنها ثقافة جماعة متعنفة لها طريقتها

الخاصة في التعبير والتصريح والمكاشفة والتنظيم قابلة للتعميم والانتشار كلما تهيأت الظروف (عوامل الإثارة = عوامل الإحباط) " إذ كلما ارتفعت شدة الإحباط، فقدت هذه- الخاصة – صلتها بالنظام الاجتماعي– القائم– مما يساعد على نمو الاستعداد العمدي لارتكاب العنف بصورة جماعية"، (الجوهري، م287 :1995) أيام وأشهر عربية تمضي نحو العنف لكنها تعكس ما تعكس أيام مشرقة بآمال مجتمع وانبعاث أمة وتطلعات الجماهير،اعتمدت على الخميرة العقلانية الحديثة في مستويات الوعي والتنظم والتعبير، فطرح مشروع التغيير وإسقاط الأنظمة والحكومات، في هذه اللحظات الجميع يتساءل، لا عن هوية هذه الانتفاضات، بل عن مساعيها الجديدة.

رابعا. نحو سوسيولوجيا" الحل "ومتطلبات مشروع – إدارة العنف والثقافة المضادة المشروعة في مجتمعاتنا العربية

لقد ذكر الناقد الفرنسي ماكسيم رودنسون(Maxime Rodinson) " : ما أسوأ اللغة التي لا فعل لها، سوى فعل التوابل حين تساعدنا على ابتلاع الأطعمة الأكثر فسادا"، (حنفي،ح61 :1992 .) هكذا جاءت مكلمات المتسلجين التكنوقراط في بلادنا العربية هؤلاء على مختلف تموقعاتهم، كحراس الجامعات أو جنودا للمكاتب لا مبالية وفاترة، مكلمات سطحية، موضوعاتها مكررة، مردودها ضعيف وليس له تأثيرات عملية لدى صناع القرار فمتى سجل التاريخ انحطاط أمتنا، أليس منذ أن أصبحت الكلمة مبتذلة، لا معنى لها تقال بالقنطار ولكن إن بيننا اليوم من يحقر الكلمة ويقول مالنا والكلمات نحن في حاجة إلى خبز وزيت وخدمات لنأكل ونزهو ونرفه ولتمت كل الكلمات والأفكار (قلالة، م294 :2003) ، مع رشيد بوجدرة والطاهر وطار ومحمد أركون والجابري، والحوراني.

إن هذا هو حال سوسيولوجيا التكنوقراط، فقد أدركتها الشيخوخة في بلادنا العربية وأصابها الشلل والقعود عن التقدم، حتى صار كل ما يكتب ليس بريئا، مكلمات سوسيولوجية تحوم في كل وقت وفي كل مكان على طبقات وتنوعات وأطرزة وموديلات، لكن دون جدوى ومع أنه لم تعد تنقصنا العقول المفكرة، ولا آلات الطبع والنسخ والأوراق إننا نملك كل هذا لكن ما ينقصنا هو المناخ الذي يسمح للفكر أن يعّم وينتشر وينفذ، يسمح للآلة أن تطبع وتنسخ أفضل الكلام وأفضل الحلول فنحن وإلى يومنا هذا، لازلنا نتكلم أكثر مما نعمل؟ لأن حقل

السوسيولوجيا العربية عندنا مرهونا من أبيه إلى جده بالخطابات الموضوعة لا المطبوعة خطابات سوسيو -عربية كانت ولا تزال تعيش على الصدقات والإكراميات وحين يطرح ابن خلدون موضوعاته الشهيرة" :اعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة، يستعين بها على أمره"، (ابن خلدون،257: 1986) فإنه يبدو أن المجتمع العربي الذي يمر اليوم بحالة توثب ثوري، حركات وارتدادات وهزات تقوى أو تضعف حسب درجات الشحن والكمون التي أحاطت بهذا المجتمع أو ذاك في القطر العربي من أقصاه إلى أقصاه، وعندما قال ابن خلدون أن المجتمع إذا أنابته نائبة احتاج إلى أهل القلم نجيا، يستعين بها على أمره، ولأن أهل القلم شريك في المعونة، حيث نلحظ اليوم ضعف عصبية الدولة العربية (بمفهوم ابن خلدون)، أمعنا النجاة بأهل القلم فجاءت هذه الورقة لترصد" الحل "بعيون أهل العلم.

المراجع

سموك، علي(2006) ، إشكالية العنف في المجتمع الجزائري)من أجل مقاربة سوسيولوجية (عنابة : جامعة باجي مختار - مخبر البحث، التربية، الانحراف والجريمة في المجتمع.

محمد، أبو الفضل(1979) ، لسان العرب، القاهرة : دار المعارف، ، ج4.

الجوهري، محمد وآخرون(1995)، المشكلات الاجتماعية، ط1، الإسكندرية :دار المعرفة الجامعية.

بستياو، جوزيف(1993)، العنف والعجز والفردية، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، اليونسكو، ع132 ، ص -ص36-22.

المرصفاوي، حسن صادق(1977)، البيئة والجريمة، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد السابع، ع4، ص -ص.86-71

ماركوز، هربرت(1988)، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، ط3، بيروت : دار الأدب.

دليو، فضيل(2004)،علم الاجتماع المعاصر(ثنائياته النظرية والمنهجية)، الجزائر :مخبر علم الاجتماع الاتصال، جامعة منتوري قسنطينة.

غليون، برهان(1993) ، المحنة العربية الدولة ضد الأمة، ط1 ، بيروت :مركز دراسات الوحدة العربية.

الكواكبي، عبد الرحمن(1980) ، الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي، تحقيق محمد اعمارة، القاهرة :الهيئة المصرية العامة للكتاب.

بومهرة، نور الدين(1997) ، المؤسسة الصناعية والصدمة الثقافية في الجزائر، مجلة الباحث الاجتماعي، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، ص -ص.36 -20

حجاج، قاسم(2003) ، العولمة والعالمية، العولمة والعالمية – نحو عولمة إنسانية وعالمية تعددية، غرداية :منشورات جمعية التراث.

ابن خلدون، عبد الرحمان(1986)، المقدمة، الفصل الخامس والثلاثون (في التفاوت في مراتب السيف والقلم في الدول) ، ط6، بيروت : دار القلم.

المراغي، محمود(1997) ، أفول الحكومات، مجلة العربي، ع458 ، جانفي.

قناوي، شادية علي(1988) ، المشكلات الاجتماعية وإشكالية اغتراب علم الاجتماع – رؤية من العالم الثالث، القاهرة : دار الثقافة العربية.

الدجاني أحمد صدقي .الجابري، محمد وآخرون(1995)، المثقف العربي همومه وعطاؤه، ط1 ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية.

دراج، فيصل وآخرون(1981)، الثقافة والديمقراطية، بيروت: منشورات الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين.

شكري، غالي(1990) ، أقنعة الإرهاب، مجلة الناقد العربي، البحث عن علمانية جديدة، القاهرة : دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ع.22

ناجي، سفير (2008)، محاولات في التحليل الاجتماعي التشغيل-الصناعة والتنمية، الجزء2، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية.

Legrain, Michel (1997), Le grand Robert, ed, Robert, Paris.

Perlman, D, Cozby, P. Chris (1983),"Social psychology" New York, Holt Rinehart and Winston, , 271, 265-286